توظيف دور الأدب في خدمة المجتمع

د. أم الخير سالم المبروك بليبلو

ملخص البحث :

في ملخص هذه الورقة نقول إن موضوعاً كهذا يخلق كثيرا من التساؤلات ، وهذا الموضوع أخذ قسطاً وافراً من البحوث ممّن سبقونا .

إن دور الأدب في خدمة المجتمع هو بالذات يشمل علاقة الأديب بمجتمعه ووعيه لما يجري حوله وكشفه ما يخص المجتمع وما يخفى على الآخرين ، فالأدب فن من الفنون الجميلة يعكس مظهرا من مظاهر الحياة الاجتماعية .

دور الأدب في خدمة المجتمع قائم بالفعل وبالقوة ، فالأدب لا يكون أدباً في ظل شروط اجتماعية محددة ، فالأديب المُنتج للعمل الأدبي هو في البدء والختام فاعل اجتماعي قادم من مجتمع معين، والمتلقي المفترض لهذا المنتوج الأدبي الاجتماعي هو فاعل اجتماعي آخر، والنسق العام الذي يحتضن هذه العملية يظل هو المجتمع بفاعلياته .

توظيف دور الادب في خدمة المجتمع

مقدمة :

أحياناً لا نصدق ولا تخطر على بالنا أمور كثيرة إلا عندما نمر بها شخصياً ، مهما قيل لنا عن مواقف إنسانية حياتية فيها تأثير على حياة الناس فإنها تظل خبراً لا ترتفع ولا تكون محل اقتناع منا إلا عندما نخبرها بشكل مباشر وملموس فالأعمال الأدبية تجسد المواقف واللحظات الحياتية المؤثرة حتى نستطيع أن نتخيلها أو نعيشها واقعاً أمامنا إلا أن هذا الدور قد يكون إيجابياً أو سلبياً بحسب توجهات الأديب والناقد وقناعاتهما الفكرية .

فالأعمال الأدبية تتيح للمشاهد أو القارئ التفكير في عيش اللحظة كما لو أنها تحدث له أو أنها تعطي أو توفر الفرصة لمعايشة اللحظة التي قد لا تتوفر للشخص في الواقع العلمي، وطبعاً لا يجب وليس هناك ضرورة _أصلاً_ للمرور بمحنة حتى نعرف أو نفهم أو نتيقن من تلك المواقف واللحظات ومن الدروس التي يمكن أن نتعلمها منها قراءتها أو مشاهدتها لكي نعي أثرها سواء كان إيجابياً أو سلبياً وهنا يمكن تأثير الأعمال الأدبية .

وعالمياً تم الانتباه إلى دور الأدب وتأثيره ، حيث أخذت الأعمال الأدبية مأخذاً جاداً من قبل فلسفة ((ما بعد البنيوية او نظرية ما بعد [[post-colonialism ونظرية ما بعد الكولونيالية structuralism الاستعمار)) .(1)

حيث تم تحليل الأعمال الأدبية من ناحية النظرة العميقة لكتّابها وما يتبعون من أفكار هم _أيضاً_ قد لا يكونون يدركون وجودها .

تم التدليل على الأعمال الأدبية ليست فقط للتسلية، بل لتعزيز القناعات وخاصة قناعات الهيمنة الاستعبادية وما يطلق عليها ((بالاستعمارية)) يكفي الاطلاع على كتابات منظري نظرية ((ما بعد الكولونيالية)) وأولهم كتاب الاستشراق لإدوارد سعيد لإدراك عمق أثر الأدب في حياة الإنسان .

ما الأدب ووظيفته ؟ وكيف يمكن أن يحقق الوظيفة التي حملها على عاتقه ؟

فالأدب فن من الفنون الجميلة يعكس مظهراً من مظاهر الحياة الاجتماعية ووسيلته في التعبير عن القيم بالكلمة المعبرة الموحية, (2)هذا التعريف البسيط يلتقي بتعريف آخر هو تعبير فني عن موقف إنساني أو تجربة إنسانية ينقلها الأديب ويبغي من ورائها المتعة والفائدة ,فالتعريف يؤكد على دور الكلمة وأثرها في التعبير ومكانتها لما فيها من سحر وقوة مؤثرة في نفس المتلقي، وهذه الكلمة وراءها مبدع مرهف الحس ورقيق الطبع وشديد الحساسية يستشف بريشته الفنية بوسيلته الخاصة.

فللكلمة دور في بناء المجتمعات وأكثر ما يظهر في المواقف العصيبة والأزمان وصانع هذه الكلمة أديب ملك عقلاً واعياً مسلحا بالوعي والإيمان بالهدف .

فعلاقة الأدب بالمجتمع هي بالذات علاقة الأديب بمجتمعه ووعيه لما يجري له وكشفه ما يخص المجتمع وما يخفى عن الآخرين .

ومن ضمن التساؤلات الفرعية التي تخطر في بالنا ما هي طبيعة العلاقة بين الأديب ومجتمعه ؟

في يقيني أنها علاقة توجيهية قيادية نظراً لما يملكه من صفات وإمكانات تؤهله على تحمل المسؤولية ،ولذلك تطلب منه أن يكون أكثر التحاماً بقضايا مجتمعة وهو الذي يملك وسيلة مؤثرة بالكلمة فكل شيء يمكن أن يزول إلا أثر الكلمة، ولا يتغير شيء إلا عن طريق الكلمة .

فالأديب يملك القدرة على ربط الماضي بالحاضر وكشفه وترسيخه لقيم الخير، وهذه أمور أساسية في الأدب ،ومن أهدافه : فالأديب له عين تكشف الغطاء عن روح الأمة ،ويد تربط بين أجزاء شخصيتها ومراحل تطورها، وله قدم تسعى إلى مستقبل أرحب ،

وهذا لا يتحقق إلا بتوفر أدباء ناضجين مسؤولين واعين لقضايا أمتهم ومؤمنين بمعالجتها ، فالأديب له رسالة وهذه الرسالة تتطلب منه زاداً ثقافياً وفكرياً يغني تجربته ويعمق رؤيته للمجتمع والإنسان ، ولا نفهم علاقة الأديب بمجتمعه أنها انخراط بمشاكل المجتمع، بل نفهمها إحساساً صادقاً مفعماً بالحب والغيرة والرغبة في تطوير مجتمعه وعلاقة الأديب بمجتمعه علاقة تفاعلية ، يتأثر بالمجتمع وأحداثه ويتأثر بالوسط الاجتماعي ويتفاعل معه مما يزيد انتماءه وإحساسه .

فأرى أن الأدب انعكاس لرؤية الأدباء وتصوراتهم المستقبلية فإليكم ما قاله القاص المبدع يوسف إدريس عن علاقته بالمجتمع .

أما نحن فإننا ندعو من أجل تدعيم هذا الأدب وتركيزه وتوضيح اتجاهاته إلى سلوك سبيل الالتزام ، سموه ما شئتم ذلك هو الأدب الحي الذي ينبع من المجتمع ويصب فيه فيكون صورة حية له وذلك هو الأديب يصهر عواطفه جميعها في بوتقة الناس وحاجاتهم فينفذ إلى أغوار مشكلاتهم فيصدق في الإحساس وفي التعبير عنها والمشاركة في إيجاد حلول لها ، فالأدب الصادق أدب ليس معزولاً عن المجتمع، وعن الأدباء أن يعيشوا تجربة عصرهم ويعكسوها في أعمالهم متوخين ترسيخ الجديد ونفي الفاسد . (2)

وللأديب وظيفة اجتماعية نحو قضايا مجتمعه دون أن تخرجه عن إطار ومقومات العمل الفنية ؛ لأن ما يقوله ليس عادياً ولو كان عادياً لما تميز الأديب عن باقي أفراد الشعب ، ولا يمكن للأدب أن يؤدي وظيفته بعيداً عن مقومات الإبداع الفنية من خيال ورؤية وأسلوب مناسب وتصور لما يعبر عنه ويرسمه بحريته بعيداً عن الإلزام ، فهو مسؤول أمام التاريخ عن كل كلمة عبر عنها .(2)

ومن الأسئلة التي تخطر على بال الكثيرين : الأدب موجهٌ أم قائد ؟ وهل الأدب وظيفته سياسية مباشرة ؟ وأجيب عن هذه الأسئلة معتمدة على بعض التصريحات التي أدلى بها الأدباء في مقابلاتهم فقد سُئل توفيق الحكيم لماذا تكتب؟ فكان جوابه "لأن الفنان لابد أن يكون له وجهة نظر في الحياة وفي الناس وفي الافكار" ،(3) الفنان ليس مجرد متفرج، إنه متفرج وصانع لمجتمعه في وقت واحد وهناك قول يقول "النفس بحاجة إلى رخاء في غذائها الفكري العاطفي كحاجة الجسم إلى شيء من النعيم في حياته المادية والأدباء والفنانون يجلبون هذه الحقيقة ويقدمون هذه الوجلة الغنية للمجتمع " .

فوظيفة الأدب محصلة لوعي الأديب وإيمانه بدور الكلمة ، فالأدباء رُسل المجتمع وهداة البشر بما يملكون من قدرات ومواهب ، فالأدب ليس حزباً سياسياً أو قيادة عسكرية أو حلفاً ، بل مؤشر لزرع قيم نتوخّاها ونسعى لتحقيقها ، فدوره دور تهذيبي تكويني

تحريضي ، فرسالة الكاتب الكشف للناس عن الحقيقة وهذا ما عبر عنه الفيلسوف الألماني (نيتشه) فمن لم يكن يحيا لكشف الحقيقة كاملة فليستمع ما طاب له من نعيم الدنيا لن يكون ذلك كاتباً ، وإنما هو أفّاك مزور لا قدر له ولا مقام له ،(3) إن هذا الإدلاء الصريح يبين وظيفة الأديب ودورة وهذا لا يأتي إلا بتحرر الأديب ، فالحقيقة وكشفها وتعريتها تحتاج لتحرر الأديب سوى من فكره وقناعاته ولا نفهم حياديّة الأديب أنها تخلّ عن رسالته ومجتمعه ، فالأدب ألصق الفنون بالحياة الإنسانية وأقدرها على الإبداع والإمتاع وأحبّها إلى الأذواق وأشهرها شيوعاً بين الناس ، وهذا ما يحدد مسؤولية الأديب أمام هذه الثقة الممنوحة له من فئات المجتمع المختلفة ، فلا أدب من دون هدف ورسالة يصبو إليها الأديب ، فالأديب الحر مسؤول أمام ضميره عمّا يكتب ويقدم من إبداع .

ومن ضمن الأسئلة التي تتردد في المجالس الأدبية : ما دور الأدباء الشباب الذين ينطلقون بعفوية وحرارة ، ويبحثون مكان لهم ؟ فالأدباء الشباب لا تختلف الآراء حول أهميتهم ودورهم الأساسي لحمل عبء من سبقهم ، ومتابعة الدرب برؤية واقعية تفاؤلية متسلّحة بالحفاظ على القيم والمثل ، متمسكين بتراثهم دون تناسي معاصرتهم ومتطلباتهم ، فعليهم أن يجددوا ما شاء لهم التجديد ولكن داخل إطار الإتقان والقواعد والتجويد والمعقولية وحسن النية بالدرجة الأولى بعيدين عن الاستخفاف والابتذال والاستهتار ، وهذه الأمور لا تتحقق إلا بتعميق الصلة والعلاقة بين الأجيال ، وزرع الاحترام المتبادل ، فعلى الأدباء أن يفتحوا صدورهم لتجارب الشباب ويناقشوها ، وعلى دور النشر أن تأخذ بأيديهم تساعدهم على النشر وتوجههم وتبحث عن وجودهم ، وهذه مسؤولية ضرورية لئلا تكون هناك قطيعة، وعندها الطامة الكبرى ، فالأدباء الشباب لهم حقوق وعليهم واجبات ويجب أن نتوجه إليهم لنحافظ عليهم ، فالمحافظة عليهم تمسك بوحدتنا وأصالتنا .

فمفهوم الأدب توسع ليكون أداة وسلاحاً في يد من يملكه ،ليقوم بفعل ما يريد مجتمعنا ، فالأدب بكل أشكاله (قصة وشعر ورواية وغير ذلك) له تأثير خفي على مشاعر الإنسان في المجال الديني مثلا إذا تم استغلال الأدب للتنفير من الدين الإسلامي ، ومن معتنقيه فإنه يؤدي دوره على أكمل وجه ، ومثله تماماً اذا تم استخدامه لبيان سماحة الدين وعواقب عدم تطبيق شرع الله على الانسان والمجتمع بشكل فني .

كثر التنفير من الدين الاسلامي وأهله وذلك بإلصاق التهم عليه وعليهم جزافاً عندما يخطئ إنسان ما أو حتي مجموعة من المسلمين وكأن المسلمين ملائكة ، كثر هذا التنفير في الأعمال الأدبية والنقدية ولم يتفطن لهذا كثير من الناس إلا أنه للإنصاف أقول أن

هناك محاولات أكاديمية نقدية جادة ، ومحاولات إعلامية لتوضيح هذا الأمر ، إلا أنها لم تصل الى الكم الكافي برأينا لقلة المشتغلين عليها برغم عيشنا نحن المسلمين تحت سيل جارف من النعت بالإرهاب العالمي منذ عقود ، الكثير من الكتابات الأدبية والنقدية الجادة والمحترمة للمشتغلين بالأدب الإسلامي من أمثلتهم كتابات عماد الدين خليل ووليد قصاب وغيرهم .

هذه الأعمال الأدبية والنقدية ينبغي أن تعزز وتنشر حتى يتكون لدينا ولدى شباب أمتنا حس أدبي ونقدي إسلامي له دوره المؤثر والفعّال في مجتمعاتنا العربية والإسلامية .

عالمياً ، لقد تم الانتباه إلى دور الأدب وتأثيره على تشكيل رؤى وقناعات الناس قبل عدة عقود من الزمن لذلك تجد إمكانات ضخمة توفر للأدباء والنقاد لتخدم توجهات الممولين والمنتجين .

ولكننا في وطننا العربي لم نعي دوره وأثره على وعي الأمة إلا بشكل محدود ، لذلك ما يزال دوره الهدام في وطننا العربي يعمل فينا من خلال الأعمال الأدبية التي تهدم قيمنا وتكرس التبعية فينا وفي شبابنا .

إن النظرة لمفهوم الأدب مثله مثل غيره من المفاهيم قد توسعت ليكون أداة وسلاحاً في يد من يملكه ليعمل به ما يريد في المجتمعات لذلك ينبغي أن يتم استيعاب دور الأدب وأهميته لنجني منه الثمرة التي نريد ونتجنب تأثيره الهدام على أمتنا ومجتمعاتنا .(3)

أهمية الأدب في حياتنا :

يستمد الأدب أهميته من وصفه للواقع والإضافة إليه ، أي تجاوزه التحلل إلى القيمة المضافة من خلال تقديمه نماذج متباينة من آليات التفكير سواء على صعيد الفرد أو المجتمعات وذلك في إطار حدث ما .

والأدب الرفيع أو الكلاسيكي يعادل أعلى فرص للتعليم كما توفر للفرد فرصة التعرف على العالم خارج إطار ذاته ، ليتنور فكره ويحظى بفرصة محاكاة الأشياء من خلال منظوره وفهمه الغني للحياة . (4)

يقدم الأدب للقارئ المتعة العميقة التي تتمثل في إغناء حياته على الصعيدين المعنوي والروحي وإضفاء المعنى الشامل الذي يتجاوز تفاصيل حياته اليومية، ويعيدنا الأدب إلى قصص التاريخ والملاحم والكتب المقدسة والأعمال الكلاسيكية القديمة والحديثة من خلال الشكل الأدبي الذي يتضمن اللغة والثقافة .

إن الأعمال الأدبية التي خلدها التاريخ خصوصاً للكاتب الروسي ليون تولستوي بمثابة مرشد للمثل والقيم الإنسانية التي من خلالها يفهم الإنسان حياته وحياة الآخرين ،

كما تتيح له الفرصة لإلقاء نظرة عميقة على أوجه الحياة المختلفة . وعليه فإن الأدب قادر على تغيير رؤية الإنسان للحياة سواء من خلال ما حققه الأدباء من إنجازات قيمة أسهمت في الارتقاء بثقافة ومفاهيم المجتمع أو عبر سيرتهم الذاتية في الأدب الواقعي والتي تلقي الضوء على تجاربهم المميزة التي تضيف إلى تجربة الإنسان وثقافته، عندها فإن الأدب مرآة لكل زمان ومكان ،فما كتب في التاريخ غالباً من باب قوة سياسية وتوجهاتها ، وأما الأدب فهو مرجع أصدق وأغنى لمعرفة أحوال الناس وشؤونهم في مرحلة زمنية ما ، وهكذا فإن محتوى الأدب أبعد من مضمونه الأدبي المرتبط بمعاني الكلمات وجماليات التعبير والصياغة، فهو بمثابة الأسس التي تغمي الحياة .(4)

فللأدب أهمية في تقديم المنظور الأوسع حين تقرأ قطعة أدبية فأنت تقرأ تجربة حياة من خلال عيني شخص آخر، وبدا يتاح لك معرفة وجه آخر لا تعرفه عن الحياة ، تماماً كما تشاهد فيلماً عن ظروف مجتمع آخر له قصصه المختلفة عن عالمك .

الكتاب الجيد يجعلك تفكر خارج حدود عقلك ويجعلك تتعاطف مع الناس الذين خاضوا تجارب لم تعرف عنها والتي تعلمك عن أشياء لم تكن لتدرك وجودها أو التعرف عليها بمفردك ، الأعمال الأدبية العظيمة التي كتبت بصورة جيدة تمنحك الفرصة للشعور بمشاعر الشخصيات التي تصفها وتتيح لك اختبار الأفكار التي تطرح في عالم أدب الخيال ، فمن خلال هذا العالم تتعرف على معنى أن يكون الطفل فقيراً أو يتيماً أو محروماً من حقوقه في التعليم أو مسؤولاً عن توفير القوت لأسرته أو العناية بوالدته المريضة .(4)

وإلى الأدب أهميته كدروس في التاريخ حيث يمكن من خلال الأدب الدخول إلى التاريخ بصورة شخصية ومكثفة، فقصص التاريخ تحكي عن أحداث يمكن لك من خلالها أن تعرف الشعور في أن تكون وسط معارك شهيرة أو مجاعة أو زمن ركود اقتصادي أو زمن مزدهر أو المعاناة الحقيقية في زمن الحروب .

وأيضاً للأدب أهمية في الكتابة والتعبير ، نجد أن هناك اختلافاً بين أنواع التعبير الإنساني عما يمر به من مواقف وظروف وأحوال ، فبعض الأشخاص يميلون إلى التعبير المباشر عن مكنوناته والبعض الآخر يلجؤون إلى التعبير الأدبي المجازي عنها ، غير أن المتلقي يكون أكثر ميلاً إلى قراءة ما يلامس واقعه وحياته بشكل أدبي مجازي ، فالكتابة الأدبية تلامس شغاف القلب أكثر من أي نوع آخر من أنواع الكتابة لا يمكن لأي عقل أن يفصل بين الحياة والأدب .

فالحياة أدب وفي الأدب حياة وأجمل حياة هي التي يمكن أن يصوغها صائغ الكلام على أوراقه ، ليرسلها فتكون كالرياح اللواقح ، تلقح النفوس المتعطشة للخير والإنسانية ، ذلك أن الأديب أقدر من غيره على الغوص في أعماق الناس ، وملامسة دواخلهم ، فتكون كلماته بلسماً لأرواحهم ، تُتلى آناء الليل ، وأطراف اليأس والإحباط .

الأدب وتأثيره على الحياة :

يساعد الأدب متذوقيه على الإمعان أكثر في تجارب حياتية كانوا قد غيبوا عنها بطريقة أو بأخرى ، فالأديب عندما يخرج إبداعاته للعلن ، يكون قد وضع فيها خلاصة تجاربه التي مر بها ، أو التي شاهدها ، فإذا ما استغل قدراته العظيمة بالشكل الصحيح أنتج إنتاجاً أدبياً سيُحفظ عبر الأجيال ، وسيترك الأثر الكبير في نفوس المتلقين ، يذهب البعض إلى أن الأدب الروسي هو أعظم أنواع الأدب على الإطلاق ، فالأديب الروسي بإمكانه الذهاب مع شخصيته إلى آخر الشوط ، فهو قادر على تحليلها نفسياً ، وسبر أغوارها بشكل رائع جداً ، يُذهل المتلقي بحيث تصير هذه الشخصية التي يقرأ عنها مرآة له يرى بها نفسه ، فتستقيم حياته ، وتطمئن نفسه .(5)

ميزة أخرى تضاف إلى هذا الأدب الرائع ، وهي أن الشخصيات طبيعية جداً ، حيث يمكن لأي إنسان أن يراها في واقعه العيش ، وأن يحتك بها بشكل يومي ، وهذا ما يجعل العمل الأدبي الروسي أقرب إلى قلب المتلقي من أي أدب آخر ، فالفنتازيا لا تصلح في بعض المجتمعات خاصة في المجتمعات المتداعية المتهالكة البعيدة كل البعد عن معاني النبل ، والأخلاق الحميدة ، فهذا فالأدب المدروس النابع من رغبة حقيقية بالتغيير ، المرتكز على الواقع يسهم في تطوير المجتمعات ، وتحسينها إلى أبعد مدى وحد ممكنين ، كما يساعد الأدب على إعادة إنتاج القصص الواقعية ، أو الأحداث التاريخية بشكل أفضل بكثير من السرد التاريخي المجرد ، مما يؤدي إلى إحاطة كاملة بالحدث التاريخي من جوانبه كافة في محاول لفهمه والتفاعل معه بالشكل الأمثل والمطلوب ، وقد عمد بعض الأدباء ممن تأثروا في بعض أحداث تاريخية معينة إلى هذا النوع من الكتابة الأدبية ، حيث لاقت إنتاجاتهم إقبالاً كبيراً من قبل المهتمين .(5)

يطرح كثيرون وبخاصة الطلبة من ذوي التخصصات العلمية أسئلة غريبة : لماذا ندرس الأدب ؟ ماذا تفيدنا دراسة الرواية والمسرحية والشعر العربي ؟ فما علاقة امرئ القيس في معلقته : قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل (10)، أو ما قاله زهير بن أبي سلمى في معلقته : التي مطلعها : أمن أم أوفى دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم .(10)

ما فائدة كل ذلك ونحن طلاب هندسة وطب وفيزياء ، ولسنا طلاب أدب ولغة؟ هذه التساؤلات يمكن الإجابة عنها من خلال بيان أهمية الأدب وفائدته للناس جميعاً سواء أكانوا طلاباً أم كانوا عمالاً أم فلاحين .

في البدء يحسن الإشارة إلى أن الأدب ما هو إلا تعبير عن الواقع بأساليب جمالية ، تعتمد على اللغة، ونقصد بالواقع : المجتمع بمكوناته الثقافية والاقتصادية والسياسية ، وبما يمور فيه من حركة وصراع ، والطبيعة بما فيها من جبال وأنهار وسهول ووديان وظواهر جغرافية متنوعة ، والإنسان بما يتصارع في نفسه من رغبات ومخاوف ، وما يدور في عقله من خيالات وأفكار تتبدى كلها في سلوكه ونشاطاته .

لاشك أن أهمية الأدب تتصل بهذه العناصر جميعها ، فالأدب يزيدنا فهماً بالمجتمع ، ومعرفة بهمومه وتطلعاته ، مما يساعد أصحاب القرار على حل مشاكله والتخطيط لمستقبله ، كما يطلعنا على ما كانت عليه الحضارات والأمم السابقة ، فعلى سبيل المثال ، فإن الأدب الجاهلي وبخاصة الشعر الجاهلي يقدم لنا معلومات كثيرة عن الحياة في ذلك العصر ، ونحن نستطيع أن نتعرف المجتمع العربي في مصر بقراءة روايات نجيب محفوظ ، ونتعرف على باريس والمجتمع الفرنسي في القرن التاسع عشر بقراءة روايات الكاتب الفرنسي بلزاك ، وقد صرح أنجلز الفيلسوف الماركسي بأنه فهم منها عن الحياة السياسية والاجتماعية في ذلك العصر أكثر مما فهمه من علماء الاقتصاد والاجتماع في عصره ولما كان الأدب وسيلته في تحقيق أهدافه هو اللغة ، فهو يساعد على المحافظة عليها ، وعلى ما تحمله من تراث وفكر، باعتبار اللغة حاملة الشعر الجاهلي ، وكل ما أنجزته القريحة العربية والإسلامية منذ عصر التدوين حتى الآن ، كما أنها عنوان هويتنا ، وبها جاء القرآن الكريم ، فجعلها لغة تحمل طابع القداسة وللأدب أهميته وفائدته في تعريفنا الطبيعة المحيطة بنا ، فكثير من الأمكنة نتعرفها من خلال قراءتنا للشعر والرواية والمسرحية ، كما أن الأدب يزيدنا معرفة بالطبائع البشرية ، وهنا نذكر ما قدمه أدب الروائي الروسي ديستويفيكسي لعالم النفس فرويد وبخاصة روايته الأخوة كرامازوف ، إذ ألهمته هذه الرواية نظريته النفسية المبنية على عقدة أوديب ، وقد عرف اليونانيون القدماء في القرن الرابع قبل الميلاد أهمية الأدب للإنسان ، وتوصلوا إلى أنه يخلص النفس الإنسانية من الرغبات والمشاعر المكبوتة تحت ما يسمى نظرية التطهير . (6)

لقد أدرك أجدادنا العرب أهمية الشعر ، وهو أبرز الأجناس الأدبية ، فأطلقوا عليه ديوان العرب ، وكان إذا نبغ من القبيلة شاعر فإنها تقيم الأفراح والليالي الملاح احتفاء به ؛ لأنه لسانها في الدفاع عنها أمام خصومها ، وفي إبراز محاسنها وفضائلها وتسجيل

انتصاراتها والتغني بأمجادها ، وعندما جاء الإسلام نزل القرآن ليأسر العرب ببلاغته ، ويجذبهم ببيانه وفصاحته ، حتى أن الوليد بن المغيرة قال بعد سماعه من الرسول شيئاً منه : " إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه مثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو وما يعلى ، وأنه ليحطم ما تحته " (10)، وكم في تراثنا من قصص وحكايات تدل على تأثير الشعر في نفوس القوم ، فهذه قبيلة أنف الناقة كانت تخجل من اسمها ، وعندما قال فيهم الحطيئة : قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ومن يسوي بأنف الناقة الذنبا ،(10) صار هذا اللقب فخراً للقبيلة تتباهى به أمام غيرها من القبائل وهذا الشاعر الدرامي الذي عاش في العصر الأموي ، وهو من الشعراء والمغنين الظرفاء في الحجاز ، عندما تقدم به العمر ترك نظم الشعر والغناء وتنسك ، ولكنه عاد إلى نظم الشعر حين شكا إليه صديقه التاجر عن عدم بيعه الخمر السوداء فقال لكي يساعده على بيعها :

قل للمليحة في الخمار الأسود ماذا فعلت بناسك متعبـــــــد؟
قد كان شمر للصلاة ثيابـــــــه حتى وقفت له بباب المسجد
ردي عليه صلاته وصيامـــــــه لا تقتليه بحق دين محـــــمد(10)

فشاع الخبر في المدينة بأن الشاعر الدرامي رجع عن تنسكه و زهده ، وعشق صاحبة الخمار الأسود ، فلم تبق مليحة إلا اشترت من التاجر خماراً أسود ، ربما من ذلك الحين والنساء يرتدين الخمر السوداء ليس في المدينة وحدها، بل في العالمين العربي والإسلامي .

ويبدو تأثير الأدب في استنهاض الشعب من كبوته ، كما تجسد هذا التأثير في شعر أبي القاسم الشابي ومنه قوله :

إذا الشعب يوماً أرادا الحياة فلابد أن يستجيب القدر(10)

وكما تجلى في شعر إبراهيم اليازجي الذي ألهب حماس الناس ، وحركهم لمقاومة السلطة العثمانية فقال :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب فقد طمى الخطب حتى غاصت الركب (10)

وقد وعى أهمية الأدب والفنون عامة كثير من المفكرين والأدباء ، سئل العقاد عن ضرورات الفنون الجميلة فأجاب : " تحصيلنا الرغيف يساوينا بسائر الأحياء ولكن تحصيلنا الجمال لا يجعلنا أحياء وحسب، بل يجعلنا بشراً ممتازين في أمة ممتازة ، تحس وتحسن التعبير عن إحساسها ، الضرورات توكلنا بالأدنى من مراتب الحياة " (10)، أما الذي يدفعنا إلى الأوج من طبقات الإنسان فهو الفنون في هذا العصر نحن أحوج إلى الاهتمام بالأدب ، لنتخلص من هموم التكنولوجيا ، وهجمة الصناعة الإعلامية

والثقافية ، فإذا كان التقدم العلمي قادراً على تزويدنا بالوسائل الترفيهية ، فهو ليس بقادر على منحنا ثقافة الجمال التي تجعلنا نحس بإنسانيتنا ، إنه يتركنا مجرد مستهلكين لبضائع مستوردة ... بالأدب نستطيع أن نحقق تلك الثقافة ، وفي هذا يحضر قول الأديب اليوناني نيكولاي كازنتكيس : " الأدب يحول دون تفسح العالم " .(6)

الخاتمة :

. في النهاية يمكن القول : للأدب تأثير في حياة الناس ، فهو باعث للمتعة والمنفعة ، ومهذب للوجدان والمجتمع فضلاً عن أنفسنا ، ولهذا نرى ضرورة أن يتوجه الناس وبخاصة الطلبة نحو الكتابة في فنون الأدب المختلفة من شعر وقصة ومسرحية وخاطرة ومقالة ، وأن يقرأوا الكتب الأدبية ، فمثل هذه الاهتمامات تجنبهم الوقوع في العنف ، والاتصاف بالخشونة والقسوة ، فما وظيفة الأدب بما ينطوي عليه من قيم ذهنية وجمالية ، إلا ترقيق الوجدان ، وهندسة العواطف ، ودفع الإنسان ليسير في طريق السمو العقلي والوجداني .

. أما على مستوى آليات الاشتغال ومولداته ، فإن الاجتماعي يلعب دوراً بالغاً في إنتاج الأدب وبلورة الرؤى والمسارات المؤطرة له ، ولئن كان أنصار التحليل النفسي يذهبون إلى الربط الصارم بين العملية الإبداعية الأدبية والعناصر السيكولوجية ، فإن الدرس السوسيولوجي يلح على التداخل والتشابك بين عدد من العناصر النفسية والاجتماعية والسياسية والثقافية في صناعة الأدب ، وهي عناصر يمكن إجمالها في سؤال " المجتمع " ، إذ إن عملية الإنتاج الأدبي والأيديولوجي لا تنفصل بالمرة عن العملية الاجتماعية العامة .

. فالأدب هو محصلة نهائية لتداخل عوامل مجتمعية يحضر فيها النفسي والجمعي والتاريخي ، ولا يمكن بالتالي أن ينفصل عن سياقه المجتمعي ، فكل نص هو تجربة اجتماعية ، عبر واقع ومتخيل ، وعلى الرغم من كل المسافات الموضوعية التي يشترطها بعض الأدباء لممارسة الأدب ، فإن المجتمع يلقي بظلاله على سيرورة العملية الإبداعية ، بل ويوجه مساراتها المُمكنة في كثير من الأحيان .

والأدب انعكاس اجتماعي بطبيعة الحال ، وذلك " أنه نشاط اجتماعي قبل أن يكون نشاطاً لغوياً ، حتى اللغة تُفسر من منظور اجتماعي ، قبل أن تفسر من منظور آخر " ، ومن ثم فإن الأدب قابل للتعريف من منظور اجتماعي على أنه مجموعة من القيم ، أو التعبير عنها .(7)

. ولنا أن نتأمل صلة الأدب بالمجتمع (8) في أقدم صُور الأدب " ولنرجع إلى الوراء إلى أعمق صُور للشعر ، وهي الشعر القصصي عند اليونان ، صورة الإلياذة ، فسنجدها لا تتغنى بعواطف فردية ، وإنما تتغنى بعواطف الجماعة اليونانية لعصرها ، مصورة حروبها في طروادة ومن استبسلوا فيها من الأبطال ، ومن هنا نشأ القول إن ناظمها ليس هو هوميروس وحده " شوقي ضيف ، المدخل الاجتماعي للأدب ، وفي العصر الجاهلي كان الشعر العربي مرآة عصره ، وصورة من حياة العربي وباديته ، أو كما يقال : كان ديوان العرب ، أو سجلهم الذي يصور حياتهم ، ويحكي عاداتهم وتقاليدهم ، ويعكس أحوال معيشتهم في صدق تام ، ولنا أن نتوقف عند شاعر مثل " عمرو بن كلثوم " الذي دخل التاريخ بقصيدة واحدة تناقلتها الألسنة ، وغنتها القوافل جيئة وذهاباً ، وأكثر بنو قبيلته " تغلب " من إنشادها جيلاً بعد جيل حتى قال فيهم الشاعر :

ألهى بني تغلب عن كل مكرمةٍ قصيدة قالها عمرو بن كُلثُوم (10)

والتساؤل الآن : لماذا دخل عمرو بن كلثوم التاريخ الأدبي بمثل هذه القصيدة الوحيدة ؟ولماذا حفظها بنو تغلب وتناقلوها وظلوا يفاخرون بها جيلاً بعد جيل ؟ ألتدفق المعنى وقوة السبك وتلاحم النسج ، وجودة الصياغة وحسن العبارة ، وسلامة الأسلوب ؟ أم لأنه بجانب هذا ارتبطت القصيدة بحياة القبيلة ارتباطاً مباشراً ، وبما دار من حروب بينها وبين قبيلة " بكر " فيما عرف بحرب البسوس ؟ ولا شك أن القصيدة تتغنى بأمجاد القبيلة وبطولاتها وتصور ما كان عليه رجالها من شجاعة وإقدام وعز وجاه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ارتبطت بموقف يدلل به الشاعر شخصياً على الإباء والشجاعة والجرأة ، وهو ما تضمنته قصته مع " عمرو بن هند" التي انتهت بمقتل الأخير .(9)

. ويمكن التأكيد بأنه لم تكن العلاقة المتبادلة بين الأدب والمجتمع محل شك على مدى التاريخ الأدبي ، وإنما الإشكاليات كانت تتراكم حول وجهة النظر التي ينظر بها إلى هذه العلاقة ، وفي طرق تناولها نقدياً ، وفي الصراع الفكري والفلسفي الذي دار حولها .

. وعلى مدى التاريخ الحديث ، ومنذ انتهاء سيطرة الكنيسة على المجتمع والفكر في أوروبا وظهور ما يسمى بالعلمانية شهدت الفترة التالية نهضة للعلوم الطبيعية ، سيطرت بمنهجها وقوانينها منذ القرن التاسع عشر على البحوث الأدبية سيطرة أدت إلى ظهور ما يمكن أن نسميه بالتاريخ الطبيعي للأدب عند طائفة من النقاد ومؤرخي الآداب ، يأتي في مقدمتهم " سانت بيق " و " تين " و " برونتيير " متأثرين بفلسفة " أوجست كونت " الوضعية ، في ما عرفوا تاريخياً بالنقاد الوضعيين نسبة إلى هذه الفلسفة ، وكانت لهم رؤيتهم لهذه العلاقة التي نحن بصددها الآن ، ولدور الأدب والأديب والمجتمع أيضاً ،

وفي رأي أصحاب هذا الاتجاه أن من أشد الأمور خطأ أن يقال إن كل أديب كيان مستقل بذاته ، وبآثاره ، فالأديب وكل آثاره وأعماله ثمرة قوانين حتمية عملت في القديم ، وتعمل في الحاضر ، وتظل تعمل في المستقبل ، وهو يصدر عنها صدوراً حتمياً لا مفر منه ولا خلاص ، إذ تُشكله وتُكيفه بحسب مشيتها وبحسب ما تحمل في تضاعيفها من جبر وإلزام .

الهوامش:

1- مطيع السروري ،مقال في مجلة مدونات (www.aljazeera.net)2016.

2- محمود الأسد (الادب وعلاقته بالمجتمع) مقال بشبكة النبأ المعلوماتية 2015.

3- إبراهيم محمد (علاقة الادب بالمجتمع) مقال بمجلة (الحوار المتمدن) العدد 5247 -2016.

4- رشا المالح (الادب ثراء الحياة) مسارات فنون مقال بمجلة البيان الإماراتية ، (www.albayan.ae) 2011.

5- محمد مروان مقال بمجلة موضوع (https:mawdoo3.com) ، 2015

6- د.محمد عبدالله القواسمة (أهمية الادب وفائدته)مقال بمجلة دنيا الوطن 2014.

7- احمد فراج الثقافة والعولمة صراع الهويات والتحديات 2003.

8-حواس محمود (الادب والمجتمع)مقال بجريدة الشروق 2018.

9-النص الأصلي (https:\\bit.ly/2psufop)

10-من الدي